يوم أن قُتِل عنتر !

قصة بقلم الدكتور نعيم عطية

أمام مائتين من آكلي الفول السوداني والملانة ، في صباح مشمس جميل ، هاجم عنتر حارسه . وأخذ يمزق جسده .

لم يحتمل البعض ، اصيبوا بالاغماء ، اما أولئك الذين ما عادوا يثقون بأن شيئا يمكن ان يحدث ، فقالوا هذا فيلم من الموجة الجديدة.

مضى بمخالبه يمزق لحمه .

دوّت الصفارات ، وجرى الحراس في الممرات . تعالت الصيحات والاخطارات وصوبت الاشارات نحو القفص الملطخ بالدماء ... نحو الضحية ..

أسرع رجال النجدة ، وهم يجيئون عادة متاخرين . شهروا السلاح. اطلقوا الرصاص، من خلال القضبان ، على الاسد المفترس. خمدت مخالبه . بردت أنيابه . سقط بجوار حارسه ..

بعد تريث ، فتحت الاقفال . اقتحم ذوو البنادق والهروات القفص ، وانهالوا على جثة الوحش ضربا .

من الاقفاص المجاورة ، تعالى الزئير ، واطلقت الطيور الجارحة، في أرجاء الحديقة ، صرخات لاهثة . ربما شمت الدماء ونتانة لحم الانسان .. واحد من السادة السجانين مات .

انكب الضابط والبيطري والطبيب على الحارس الذي يلفظ الانفاس . قال لهم بابتسامة غافرة :

ـ أني لا الومه .. هذا الحبيب .. انه تعذب .. انا نفسي كنت اضرب زوجتي وعيالي ، ساعة الالم .. لا تلوموه هو ...

وقال احد المتفرجين خارج القفص معلقا :

ـ يضربون عنتر الحبيس ، والف عنتر يصول ويجول سائبا

وقال نائب المدير :

ـ سنسلخ جلده .

وقال المدير :

ـ بل سنحنطه ونودعه المتحف .. في الجناح الجديد الذي سيفتتحه السيد الوزير .. فنمنح علاوة او مكافأة او ربما ترقية.

ثم التفت الى كبير صرافي الحديقة ، وقال بلهجة حازمة :

ـ سيتضاعف عدد الزوار غدا .. بعد حادث هذا الاسد المفترس .. يمكنكم ان تزيدوا الطوابع في كل شباك .. وحاذروا من المتسللين .

في المشى المؤدي الى بيت الزواحف ، قال احد المتفرجين ، وهو يمشي الهوينا ، ويقضم كعكة السميط :

ـ سنقرأ غدا أخبارا ساخنة .

أجابه متفرج آخر ممن يؤمنون بان لا شيء يحرك المياه في البرك الراكدة :

ـ الصحفيون بشر .

ـ ولهذا سيثيرهم هذا الحدث ، ويبيعون من صحفهم آلاف النسخ .

نظر اليه المتسكع الآخر ، وقد عقد أصابعه وراء ظهره :

ـ هذا اذا لم تقدم الادارة ريش الطاووس وبيض النعام هدايا..

تلفت حوله ، وأردف قائلا :

ـ هذه الاشياء تبهر ، كما تعرف ، وهي قادرة على الاسكات غالبا .

قال الاول ، غير مقتنع :

ـ ماذا باستطاعتهم ان يقولوا ، والحادث على كل لسان ؟

ركل الاخر حصاة صادفتها قدمه في المشى :

ـ الامر سهل ، والمادة تذلل الصعاب .

ـ اراهنك لن يستطيعوا انيقولوا شيئا .. الاسد افترس حارسه.

هزّ الآخر رأسه ، قائلا :

ـ سيقولون ـ مثلا ـ الحارس مات بالصدمة العصبية ، عند ما فوجيء بالاسد يواجهه والقفص مغلق عليهما .

ـ ماذا تقول ؟ ! يحملون المسؤولية للحارس ؟ !

ـ وكاملة .. هذا اذا لم يقولوا ان الحارس هو الذي بدأ الاسد بالعدوان .. وان هذا الاسد المسكين كان مصابا بالشلل منذ أمد .

قادهما تسكعهما في الممرات المشمسة الى مبنى لا تحوطه القضبان ، بل تنفتح الشبابيك في حوائطه التي كستها النباتات المتسلقة ذات الزهر البنفسجي . كان ثمة شباك عال عن يمينهما مفتوحا على مصراعيه . لم يريا من بالداخل ، ولكن الداخل سكب الى آذانهما صوتا غليظا يقول :

ـ الحادث يرجع الى احد احتمالين .. الاول ، ان يكون الحارس

قد دخل دون ان يغلق الباب الفاصل بين القفصين الامامي والخلفي، فاتاح الفرصة للاسد ان يهجم عليه .. والثاني ، ان يكون الحارس قد طرد الاسد الى القفص الامامي المعد للعرض، وقبل ان يكون قد استدار ليغلق الباب عاد الاسد الى مكان المبيت دون ان يشعر الحارس الغافل ، ففوجيء بوجود الاسد معه في الحجرة الداخلية لا يفصل بينهما اكثر من متر واحد . وما ان وجد الحارس نفسه وجها لوجه امام الاسد بين قضبان محكمة الاغلاق حتى صرخ صرخة واحدة اثارت الاسد .. أجل ، يجب ان تبرزوا هذا على صفحاتكم .. صرخ صرخة واحدة اثارت الاسد ، فدفعه ، فوقع على الارض ، وتركه .

تعالى صوت رفيع متكسر :

ـ تصوير بارع هذا يا سيادة المدير .. تصوير بارع .. لافض فوك ، يا سيدي .

نظر المتفرجان الى بعضهما بعضا صامتين .

مضى الصوت المتسلط :

ـ ابرزوا هذه الواقعة يا حضرات .. ابرزوها على صفحاتكم جيدا ..

عاد الصوت المتكسر الرفيع :

ـ حبذا لو اخذتم صورة لسيادة المدير ، وهو يضع قدمه على رأس الاسد . سيكون لهذا وقع حسن في قلوب القراء .. وسياتون ليتفرجوا على سيادة المدير بدلا من الاسد القتيل .

وقد صوت المدير منتهرا :

ـ دعك من هذه التعليقات يا سيادة الوكيل ولننتبه كلية الى ضيوفنا الصحفيين .. نحن على استعداد لتزويدهم بكل المعلومات التي تلزمهم في مثل هذه المناسبة .. واجبنا يحتم علينا ذلك .. وعليهم ايضا .. سيحتاجون الى تقرير مفتش الصحة والطبيب الشرعي .. خذ قلما يا سيادة الوكيل ، واكتب ما سأمليه عليك . وليوقع مفتش الصحة على ما سأقول .

ـ لحظة واحدة ، يا سيادة المدير .. سأكتب هذا بالقلم الكوبيا ..

ـ اكتب ..

قبع المتفرجان في مكانهما ، وارهفا السمع :

ـ سيجري التقرير بالآتي .. حدثت الوفاة نتيجة صدمة عصبية وهبوط في القلب اصابا الحارس حينما وجد نفسه وجها لوجه امام الاسد والباب مغلق عليهما . .

ـ وعن الآثار التي تركها الاسد على جسم الحارس ماذا تريد ان نقول ، يا سيدي المدير ؟

ـ لا تقاطعني ، كل شيء أعددت له عدته ..

ـ اعرف .. اعرف .. يا سيدي .. لكنه مجرد خاطر عارض..

ـ اين وقفنا آه ، تذكرت .. فلنكتب .. هذا ما أكدته ايضا الآثار التي تركها الاسد على جسم الحارس .. لم يعثر الاطباء الا على خدوش حول الاذن اليمنى .

ـ ولماذا اليمنى ، يا سيدي ؟

ـ لتكن اليسرى ، اذن .. وجرح لم ينزف منه نقطة دم .

ـ عظيم .. ولا نقطة دم واحدة ! أقسم على ذلك !

ـ أوراق رسمية هذه ، ولا تحتاج الى قسم على صحتها .

هذا صحيح .. ولا نقطة دم واحدة ، اذن .. لا نقطة دم ، وكفى!

ـ وجسم الحارس متكامل لم يحاول الاسد ان يقترب منه بعد وقوعه على الارض ..

ـ أجل ، حتى ملابسه كاملة .

ـ الاقفاص والابواب مصممة بطريقة سليمة مائة في المائة . ويقف الحيوان امامها عاجزا . يجب ان تؤكدوا لقرائكم انه لولا الاهمال لما حدث شيء .. ويمكنكم ان تضيفوا ان الاسد كان كسيحا .. مسكين .. منذ سنتين .. وكنا سنمنحه عكازا يتوكأ عليه في بداية السنة المالية .. يجب ان تستثيروا عطف الجمهور على الاسد .

تبادل المتفرجان نظرة مذعورة ، ومضيا مبتعدين عن مبنى الادارة ، خشية ان يراهما احد ، وهما يسترقان السمع ويتلصصان فيأمر المدير بالقائهما في قفص النمور أو بركة التمساح .. او ربما احكم وثاقهما وطرحهما أرضا تحت اقدام الفيل .

قال ذلك الذي يعرف ان لا شيء يتغير في هذا الوجود :

ـ ستكتب الجرائد غدا ان الحادث وقع بعيدا عن الانظار ... ولم يستطع احد من الجمهور ان يلاحظ شيئا على الاطلاق .. على الاطلاق !

ـ ولكننا رأينا الدماء بعيوننا هذه !

ـ ومن أنت ؟ ومن انا ؟ لسنا ممن يعمل له حساب .

ـ وكل هؤلاء الذين رأوا الحادث معنا ؟

ـ كم مهمل .. ومن أصر على انه رأى انهم بانه مختل العقل او قصير النظر . أو ربما هو مثير للاشاعات المغرضة .. يريد الاساءة عمدا الى سمعة الحديقة التي مضى قرن من الزمان على انشائها .

أقبل بعض الاطفال من زوار الحديقة يجرون صائحين . فقد عثروا على رأس آدمي ملقى اسفل احد كباري بحيرات الحديقة . وقد تبين بعد انتشاله انه لرجل في نحو الاربعين من عمره ذي شارب كثيف .

انحنى المدير في الرأس الذي تقطر منه المياه ، والتصقت به بعض الطحالب الخضراء . ثم قال :

ـ غير ممكن . لا بد ان يكون مجهول قد حمل الرأس داخل حقيبة الى الحديقة ، وألقاه الى الماء في غفلة من الجمهور والحراس بينما أخفى الجسد في مكان آخر .

قال نائب المدير بصوت مضطرب :

ـ اذن ، أين الجسد ؟

ـ هذا هو السؤال ، حقا ! أين الجسد ؟ !

في أحد الممرات الجانبية تحت شجرة سنط قديمة شعثاء ، وقف عاملان من عمال الحديقة بزيهما الرسمي المهلهل .. وقد لطخته الاوساخ . قال الاول هامسا :

ـ نحن ثلاثمائة .. لا بد لنا من بدل خطر .. رأفة بعيالنا .. نحن معرضون للافتراس في كل وقت .. وعلى الاخص اثناء تقديم وجبات الطعام .. أتعرف كم طول ذراع الاسد ؟ سبعون سنتيمترا .. بينما يبلغ طول الآنية التي يقدم بها الطعام ثلاثين سنتيمترا فقط .. على الحارس ان يجد الفرصة ويتحينها لتقديم آنية الماء والطعام ، قبل ان تصل اليه يد الاسد .

ـ الاعتمادات لا تسمح .. هكذا يقولون دائما كلما رفعنا اصواتنا بالشكوى وطالبنا بالبدل .

ـ أتذكر الحادث الذي وقع عند بركة التمساح ، وانتهى بقطع ذراع زميلنا قمر ؟

ـ واذكر أيضا كيف استطاع فرس النهر .. هذا المخلوق البليد الذي لا يشبع .. ان يقسم العامل المكلف باطعامه الى نصفين .

ـ اننا معرضون دائما للهجوم . زميلنا حارس الفيل ، انحنى يربط ساق الفيلة الشابة « رفيعة » بالجنزير الحديدي كما يفعل كل ليلة . .اجراءات معتادة ، تما تقضي التعليمات .. واذا بها تستدير ، وتدفعه امامها حتى التصق ظهره بجوار الحظيرة .. مضت تدفعه بجبينها اللعين .. وتضغط عليه وتضغط ، بعصبية غير مألوفة .. كما لو كانت قد أظلمت الدنيا في وجهه .. قال الطبيب البيطري: « مجرد مداعبة .. هزار » .

ـ الحق ان الدنيا اظلمت في وجه حارسها .

ـ مضت تضغط عليه في الحائط بقوة عظيمة حتى انهدم

الحائط من ورائه .. والقت به الدفعة عشرة امتار خارجا ، ومات .

ـ لا تأمين ولا ضمانات .. نحن عزل ازاء الوحوش في الحديقة .. وفي خارجها ايضا ..

نحن الحراس المخلصين معرضون للخطر .

كانت صرخات القرود تدل على ان الطعام المقرر صرفه لها لم يصل الى اقفاصها بعد ، رغم ان ميعاد الوجبات قد فات ، وانها في انتظار حسنة من احد المتفرجين ، تسكت الجوع في احشائها .

ويبدو ان الحديقة قد اصبحت مسرحا للحوادث التي تتصل بالانسان اكثر من عرضها للطير والحيوان والزواحف . فها هو من يجري ، ويصيح :

ـ لقيط ، يا سيادة المدير .. لقيط عمره يومان .. وجدناه امام مبنى الصيدلية .

المشاكل تتزايد وتضيق الخناق على المدير . لكنه في حزم يأمر :

ـ الى الشرطة سلموه .. واستكملوا البحث بين الاشجار والحشائش .. لا بد من تطهير .. نقبوا عن الجسم بين الاغصان وعند الجذور .

دبت الحركة في ارجاء الحديقة لحظة . ثم خبت .

قال الحارس الشاكي من بطش الحيوان لزميله :

ـ سنجمع اعانة للزوجة والاولاد .

خفض الاخر صوته ، وسأل :

والمكافاة المستحقة ؟

ـ تحتاج الى تاشيرة المدير باحالة الاوراق .. وانت تعرف كم تستغرق هذه التاشيرة على الاوراق .

ـ يا له من لعين .. ستلبس زوجته غدا معطفا من جلد الاسد .. مهما كانت الاحوال .

ـ أتعرف ماذا اتمنى له ؟

يوما من الايام .. ان عاجلا أو آجلا .. عندما يقف امام القضبان في جولة تفتيشية .. ان تلتف ذراعا الاسد خارج القضبان لتمسك بكتفيه وتمزقهما أربا اربا . ولتفشل كل الجهود لانقاذه من براثنه .

ـ متى سيكون الجناز ؟

ـ غدا سيخرج من هنا .. بعد ان تتم اجراءات الاعداد للدفن.

ـ هل تعتقد انه سيصرح بدفنه ؟

ـ وماذا يريدون من مجرد جثة ؟

ـ يخشون الانفصاح . الم تسمع قول المدير .. « وجد الجسم كاملا ؟ ».

ـ وماذا في هذا ؟

ـ انت حديث العهد بالحديقة ، يا صاحبي ، سيحفظونه .. ويودعونه احد اركان المتحف.. ويكتبون لافتة صغيرة عليه: هذا نموذج للعامل الذي يثير الشغب .. نموذج للعامل الذي يسبب الازعاج والاقلاق .. للرؤساء .. باهماله .. باهمال لاسى حتفه .. والى جواره سيضعون الاسد .

ـ الم تسمع انه سيسلخ من اجل معطف حرم جناب ال ـ ؟

ـ لكل شيء استعمالاته .. الجلد للمعطف ، والهيكل العظمي للمتحف .. افهمت ؟

ـ وماذا يجديني ان افهم أو لا أفهم ؟ !

ـ كن واقعيا في نظرتك للامور .. اللامعقول ياصاحبي اصبح معقولا . ان تكون لا معقولا هو الواقعية الجديدة في هذه الحديقة العتيقة ..

انكب في ذلك الوقت افراد الضفادع البشرية على عملية مسح شامل في البرك والمجاري المائية الموجودة في الحديقة بحثا عن جثة الرجل الذي عثر الاولاد على راسه بجوار بحيرة البط .

وفجاة دوت الصفارات في ارجاء الحديقة ، وانتشر رجال شرطة الحديقة يأمرون الناس بالخروج والانصراف .

سأل احد الجالسين على العشب الاخضر باسطا في منديله بيضا مقشرا وحزمة كرات :

ـ لكن ميعاد الانصراف لم يحن !

هذا السائل تلقى لسعة من خيزرانة العسكري البدين على كتفه ..وعندما هب واقفا تلقى لسعة أخرى على عجزه .. اما الضربة الثالثة فلم تطله ، اذ كان قد اقتنع بان ميعاد الانصراف قد حان، فولى الادبار نحو باب الخروج .

همس احد الزائرين في أذن زوجته التي تشبه الشمبانزي حتى لتكاد تعتقد ان الحادثة التي وقعت منذ خمسة وثلاثين عاما ، عندما تمكن احد القرود من الافلات من قفصه ، قد تكررت في زواج هذا الزائر الذي تبدو السعادة على وجهه الصبوح ـ همس الزائر في اذن زوجته وهما يلمان اولادهما الستة الصغار :

ـ لا بد ان حدثا جللا قد وقع او ربما زائرا مهما قد وفد .. هذه الحديقة لا تقفل ابوابها الا قبل الغروب بساعة .. والشمس كما ترين لا زالت تتوسط السماء .

تاكد رجال الشرطة من خلو الممرات من الزائرين الذين لا يكفون عن معاكسة الحيوانات .

وعند الباب دخل صف من حملة المباخر ، وقد ارتدوا الزي التقليدي المجدد حتى يتلاءم مع مقتضيات العصر . ويتصدرهم احد قدامى الموظفين بالدرجة الثامنة الشخصية يقول بصوت مهيب :

ـ وسعوا الطريق .. افسحوا الممرات .. الوزير الكريم آت يوزع الخيرات .. لاسرة الفقيد خمسة وعشرون جنيها بصفة عاجلة.. وفي كل شهر بعد ذلك خمسة جنيهات ..

انفرجت اسارير الحراس لهذا الخبر .. واطمانوا على مستقبلهم من هجمات الحيوان لكن كما هو الحال دائما لا يخلو الامر من شكاك يبث الحيرة في القلوب ، قال :

ـ هذه التصريحات لكسب الوقت والاسكات .. وهل الكلام بحساب ؟ هل تشتري رغيفا بعشر كلمات .. ولا حتى بمئات ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ لا بد من مثل هذه التصريحات لامتصاص الغضب .. والانطلاق الى المستقبل بأمان .. عندما يشيع في الجو ان الشؤون القانونية تأتية لاجراء التحقيقات .. فمن حسن الادارة اطلاق مثل هذه التصريحات .. ومن امثالها ايضا توزيع الارباح..

ـ اهي من قبيل النكات اذن ؟

دوى صوت عربة الوزير عند الباب سبقه رنين الدراجات وصفير الموتوسيكلات .. وعلت الجلبة على كل الهمهمات والتساؤلات .

القاهرة — نعيم عطية

مكتبة انطوان

فرع شارع المير بشير

احدث الكتب

العربية والفرنسية